



أشجار اللوز والكرز والزيتون تنتصب في خلاء كامل بطول الطريق من مطار غازى عنتاب إلى مدينة كلس الحدوية، جنوب شرق تركيا وشمال حلب... لا شيء ينبعاً بأن هذه البلاد تشهد لحظات تحول مواطنين سوريين إلى لاجئين، وصل بعضهم إلى تركيا منذ شهور وأيام، وقد جاوز عددهم المائة ألف رسمياً، أما على أرض الواقع فهم يفوقون ذلك بكثير، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المتسللين الذين عرفوا قسوة البرارى والبرد والرصاص. تشابه اللجوء يجمعهم... فماذا يفعلون بالپايس؟

مدخل المدينة ببنياتها وقد زينت بعضها وحدات الفسيفساء ومساجدتها القديمة التي يرجع تاريخ بعضها للقرنين السادس عشر والتاسع عشر يذكرنا بهويتها العربية، فقد أخضعتها تركيا وفقاً لمعاهدة لوزان، بعد أن تناوب السيطرة عليها كل من العرب والبيزنطيين منذ القرن الخامس، حتى أصبحت المنطقة خاضعة للعثمانيين في القرن الخامس عشر.

وهو ما يفسر إحساس السوريين الذين أتوا إليها مؤخراً عندما يقولون «أنت في كلس وكأنك في حلب!»، طبعاً لا يمحو ذلك شعور الغربة والمرارة، ولكنها على ما يبدو جملة «تطمينية» يطلقونها كلما اشتدت بهم الظروف أو طال بهم الأداء، فبعضهم نجح بالفعل في إيجاد فرص عمل داخل المدينة ولكن بأجر أقل ودون تأميمات أو حقوق، والبعض الآخر فرض حاله بشكل أفضل لامتلاكه المال اللازم، وخاصة الذين دخلوا بصفة رسمية أو بجواز سفر نظامي وتنشر سيارتهم الحديثة بالشوارع ومسجل عليها «ملاكي حلب أو دمشق».

ارتفعت الإيجارات، خاصة بعد نزوح العديد من أهل حلب على مدى الثلاثة أشهر الأخيرة، فالشقة التي كانت تساوى 100 ليرة شهرياً أصبحت تستأجر بـ 1000 ليرة.. كما تبدلت أحوال فنادق كلس الأربع، فزادت تسعيراتها بعد الإقبال عليها سواء من النزلاء السوريين أو الصحفيين الذين يتواجدون لتغطية الشأن السوري وعبر الحدود أو تفقد أحوال مخيمات اللاجئين على الأطراف.

فندق «اسطنبول» على سبيل المثال تضاعفت أجراه لتصل إلى أربعين وخمسين دولاراً في الليلة، رغم تواضعه الشديد.. بطاطين ذات ورد ملونة، وسرير يحمل فوقه اتجاه القبلة، وشبشب أزرق «مريب» وضع إلى الجوار ليتناول علىه الزائرون.. أما صاحب الفندق الذي تجاوز الثمانين فيجلس في البهو الصغير تحت رسومات أهداف إياها الزبائن تصوّره

بهيئات مختلفة ونياشين ينافس بها أتاتورك الذى تزين صورته الجدران دائمًا أبداً. بعض الصبية يتحدثون القليل من العربية داخل المكان ويساعدون الضيوف على التفاهم، لكن يتعدد على الفندق أيضًا حسن وأ(ا) اللذين يجيدان التركية كما العربية، ويصطحبا بعض الوفود الأجنبية سواء هيئات إغاثة دولية، منظمات إنسانية، أو ميديا.. ليقوما بدور يشبه إلى حد ما «الخريطة» بوسط القاهرة... ترجمان ودليل فى آن، ولكن بشكل غير رسمي.

قراصنة حلب

حسن ولد لأب تركى وأم سورية، وقد أتى من أزمير خصيصاً منذ ثلاثة أشهر للعمل بالمدينة، فى ظل رواج سياحة «اللجوء» إذا جاز أن نسميه كذلك... أما (أ) فله قصة مختلفة تماماً، رغم أنه وصل إلى كلس خلال الفترة نفسها. يقال له «أبو الرز» وأسماء أخرى، وكان قد كون هو وسبعة من الأصدقاء مجموعة «قراصنة حلب» أى هاكرز مهتمهم التصدى لجيش بشار الإلكتروني الذى دأب على اختراق حسابات فيس بوك، هو متخصص بالروبوت والفيروسات بحكم دراسته الجامعية، ويرفض حالياً التعاون مع الجيشين النظامى أو الحر، موضحاً: «قراصنة (هاكرز) السعودية عرضوا على المساعدة، لكننى لم أقبل، فأنا مقدم على الهجرة إلى كندا ولدي عرض عمل بشركة بلاك بيري، فسألت وجه قريباً إلى أنقرة وحتى ذلك الحين أترجم وأساعد الصحفيين، أهل لايزالون بحلب».

جاء الاثنين إلى مقهى وبار «دربيا» المجاور للفندق بصحبة زبائن. صاحب المقهى التركى اختار أن يربح بالأبطال السوريين على لافتة محله بالعربى، فربما يأتى إليه البعض لتدخين «الأرجيلة»، ولجذب المارة فهو يشغل موسيقى تركية عالية من وقت آخر وحتى الواحدة صباحاً.

حكايات القصف المستمر لمدة عامين أصبحت تروى كيوميات الحزن العادى.. والحرص هو دائمًا سيد الموقف عندما يكون الأهل لا يزالون بالداخل.. لا أحد يعلم كيف ستكون النهاية، وفي مثل هذه الظروف طبيعى أن تلتقي قناصاً شاباً هرب من التعاون مع قوات بشار.. لا يتحدث سوى قليل حتى تشക أنه يفهم العربية، وقد ارتسمت على وجهه علامات الغموض والسكينة وهو يجلس ضمن المجموعة يأكل فى مطعم المشاوي الأشهر بكلس.. الطباخ هو الآخر من حلب، تحديداً من مدينة إعزاز الحدودية: «الأصناف هنا تختلف قليلاً، فالأتراك يستخدمون الخضروات أكثر فى حين نعتمد نحن على اللحم.. وبعض الأطباق لا يعرفونها بالمرة»، يقول رشيد مقداد ذلك على استحياء، فقد كان شيف مطعم «الشعار» الشعبي بدمشق...

تنازل بعض الشيء بالنسبة لموقعه داخل المطبخ، لكنه يحمد الله على أنه استطاع أن يعمل بشروط موفقة: 900 ليرة شهرياً و3 ساعات أقل في الدوام، مما يجعله مساوياً لنظيره التركى الذي يحصل على 1200 ليرة مقابل ساعات أطول، وهكذا دواليك..

في حمام «الخوجة» مدلوك سوري، وفي محل البهارات بيعاين من حلب.. تغيير العملة.. فول وفلافل.. الأنشطة والدكاكين تتتنوع والتازحون ينتشرون بحكم طبيعة الجغرافيا السياسية، حتى أصبح من الطبيعي أن نرى في الشوارع إعلانات عن قرب افتتاح مقهى مثل «جنة حلب» بإدارة سورية كاملة، ولافتة تؤكد « يوجد لدينا زيت حلو»، أو إشارة واضحة عن بيع قواميس تركية — عربية بعد أن زاد عليها الطلب.

حلب اليوم

الشارع الرئيسي بكلس يقودنا إلى منطقة أكثر خصوصية، المدينة القديمة وجامع التكية وبيت الوالى الذى يرجع تاريخه إلى حوالي 1320 هجرية.. سراديب ودهاليز، بعضها كان يؤدى إلى حلب أيام زمان.. أما الآن فنحن على موعد مع طاقم قناة

«حلب اليوم» التليفزيونية والتي تحظى بثلاثة ملايين مشاهد داخل حلب..

أوامر الشغل والمحتوى يخرج من هنا بمساعدة ستين مراسلا غير احترافي بالداخل ينتمون لشبكات مختلفة وليس بالضرورة لطاقم القناة، أما البث فمن دولة أخرى، وعن قريب جدا سينتقل الفريق (حوالى 6-10 من الشباب الذين أتى معظمهم تهريب) للعمل بمدينة أكبر..

فالقناة مقبلة على مشروع توسيع، حتى تبث إلى جانب الصور الثابتة وشريط الأخبار بعض النشرات ومقاطع الفيديو والتقارير المصورة، ولو بإمكانات ضعيفة، فهناك استوديو جديد قيد التجهيز.

شاشة كبيرة تتصدر البهلو الذى خلا تقريرا من الأثاث.. أجهزة لا تبتوء متناثرة هنا وهناك، فالفريق يعتمد على غرف سكایب للتواصل وعلى التليفون الجوال.. يصل الخبر للمحرر فيدخل على أكثر من مصدر للتأكد من صحته، ثم يصيغه وفقا لقواعد القناة ويرسله، فنستقبله نحن على تردد 11555 عمودى – نايل سات، ترميز ¾.

«في البداية كنا نلتزم بكلمة (اللجان الشعبية) بدلا من (الشبيحة)، ونذكر عدد (القتلى أو الضحايا) بدلا من استخدام (شهاء)، كنا نريد أن نجذب مشاهدين من الجانبين في مرحلة أولى، أما الآن ومن ثلاثة أشهر تحديدا بدأنا نقول (شبيحة)..

كذلك اعتدنا في السابق أن نقول (ناشطون يصفونها بالمجربة) أما الآن لم يعد هناك داعٍ لذلك، نسمى الأشياء بأسمائها. وعندما نبث أي فيديو يصور عمليات عسكرية ننزع اللوجو الخاص بالألوية المختلفة وننسبه فقط للجيش الحر، هكذااكتسبنا ثقة المشاهد فإذا وقع انفجار إلى جانب منزله يفتح فورا (حلب اليوم) ليرى ما حدث».

القناة هي عبارة عن وقفيّة تقوم على التبرعات، لديها مجلس أمناء يضم عددا لا يأس به من الإخوان المسلمين، ورئيس تحرير دارس للإعلام - سامر كنجو - الذي سيغادرهم خلال أيام لخلاف في وجهات النظر، فالأخير يرفض إلتحق القناة بأحد المجالس الثورية وإن ظل على علاقة جيدة بالعاملين.

معظم هؤلاء كان على صلة سابقة بالسيد كنجو الذي دشن من قبل موقعه الإلكتروني بعنوان «مدينتنا» يتناول أخبار سوريا بشكل عام، كما يذكر أحد شباب العاملين الذي يدرس الشريعة والحقوق.

«كنت أعمل معه في التحرير والتدقيق اللغوي بموقع (مدينتنا) منذ 2011 دون أن أعرف أنه له صلة بقناة (حلب اليوم)، بسبب التكميم الأمني طبعا. ثم انتقلت إلى هنا للعمل بالقناة مؤخرا، وهناك تغيرات في الفريق وإعادة هيكلة»، لم يكن لهذا الشاب العشريني أي خبرة بالتصوير أو بالعمل الصحفى إلا أنه كالعديد من أبناء الشعب السوري تحول لشاهد عيان ومتظاهر ومشارك في الثورة، وهو يصور أحيانا بعض الأحداث ليتركها ذكرى لأولاده كما يقول: «صورت عندما جاء المراقبون الدوليون إلى ساحة الجامعة وزعوا الناس صور بشار وحافظ الأسد.. كذلك صورت إسعاف مصاب بصلاح الدين وأنا أقوم بذلك من خلال كاميرا التليفون».

العاملون فخورون بما حققوا من سبق، خاصة يوم تفجير مبنى الأمن القومي وتسجيلهم لاستخدام الكيماوى بريف حلب، ويضيف أحدهم: «عملت مقابلة مع شخص وكان معه قطع من هذه المادة الكيماوية.. مثل الخيوط العنكبوتية».

القناة طورت سريعا خلال السنة الأخيرة كما يوضح سامر كنجو (أبوراز الحلبي): «للدخول في المجتمع الحلبي المغلق بدأنا بمحظى صوتي وبعض الأغانى الحلبية القديمة وإعلانات التجار..

وبعد شهرين بثينا أول شريط أنباء أسفل الشاشة يتضمن أخبار المعارضة بشكل طفيف، واستخدمنا مصطلحات متوازنة».

والآن يعرض علينا أحد شباب العاملين ذى الميول اليسارية فيلما قصيرا من إنتاجهم بالتعاون مع تليفزيون أورينت بعنوان «أربعة أسئلة في استراحة شاي» مع مقاتل ملتحٍ من عنجر.

المدينة تأخذنا أبعد وأبعد حيث شوارع وأزقة أكثر عشوائية ولكنها لا تخلو قطعاً من السوريين، مستوصف بسيط للجرحى والنازحين.. حديقة تجمعهم..

وأيضاً ميكروباص ينقلهم مقابل ليرة ونصف إلى مخيم كلس الحدودي حيث أوجعنا إشارات النصر المرسومة بأصابع الصغار.. حيث نوع مختلف من اللجوء.

حكايات المخيم

صمت رهيب البوابة الحدودية على مرمى البصر.. غرف الزيارة تراص على الجانب الأيمن من المخيم، فرغم أن هذا الأخير يعرف دوماً على أنه «مخيم خمس نجوم» فإن النظام فيه أشبه بالسجن ربما لوقوع اشتباكات من قبل بين الأهالي والسلطات التركية، فلا يسمح للزائرين بالدخول إلا في أضيق الحدود.

وبالتالي من يأتي لزيارة ذويه دون أن يكون مثبتاً لديهم يلتقيهم في هذه الغرف التي يلاصقها على طرف الرصيف دكان عم «أبو محمود» حيث يقوم بشواء اللحم وتقطير الوجبات، إضافة إلى خدمات وتسهيلات أخرى، فهو أحد الشخصيات المحورية بمخيم كلس الذي أنشأ في عجلة ليستوعب النازحين، على مساحة 36 هكتاراً، ليضم حالياً 15 ألف لاجئ ولا يسع المزيد.. وهو ضمن 13 مخيماً منتشرة على الحدود التركية-السورية التي تمتد حوالي 900 كم. يدرك المقيمون في المخيم أنهم أوفر حظاً من آخرين، فمن يشاغب مثلاً يعاقب بإرساله إلى مخيم أورفا (أيضاً في الجنوب الشرقي)، الذي يعد الأسوأ بين المخيمات التركية، ولكن هذا لا يمنع طفلاً مثل خلف أن يعلن تفضيله لمخيم الريحانية حيث استقر في البداية، لأنه كان يأوي الكثيرين من أبناء بلدته وعدد من رفقاء، أما هنا فهو يشعر بالغربة بين العائلات التي أتت من إدلب وجسر الشعور وتل رفعت وإعزاز وغيرها من المناطق المنكوبة بفعل فاعل.

يضع كارت الهوية الخاص به، فتظهر كل المعلومات المتعلقة بشخصه، إضافة لصورته التي تسقط على الشاشة المثبتة أعلى، يفتح الباب الحديدى وينطلق خلف إلى حال سبيله بين كرافات المخيم البيضاء التي تتكرر إلى ما لا نهاية. فهم الناس أن الإقامة هنا قد تطول، لذا كيروا عيشتهم وصنعوا حياة من حولهم، حتى لو تكدس من 7 إلى 15 شخصاً في الغرفة الواحدة منذ حوالي السنة، يكيفهم أنهم معاً.. أقام البعض «بسطات» وحولوها إلى دكاكين صغيرة تسقفها الأقمصة والبطاطين، يبيعون الشوكولاتة والسجائر والخضاروات والملابس البسيطة إلخ.. يكتب البعض على أبواب الكارافان اسم اللواء الذي ينتمي إليه الوالد مثلاً، أو بعض الشعارات الدينية التي تؤيد الثورة وتعد بالنصر.

لا ينتمي هؤلاء بعد إلى المخيم بأى شكل من الأشكال، فهم لا يصفون أنفسهم أبداً على أنهم أبناء مخيم كما هو الحال بالنسبة لبعض الفلسطينيين الذين هدمت قراهم أو طمست من على الخريطة، بل يذكرون على الفور اسم بلدتهم ويدعونك إلى زيارتهم في المسجد الأموي عن قريب.. «لستنا بحاجة إلى شيء، فقط اعطونا أمل.. حدثونا كيف أنت ثورتكم رئيس وما هي الأحوال لديكم!»، تترد الجملة على لسان معظم الناس، ومعظمهم من النساء والأطفال، إذ التحق الشباب والرجال بالجيش الحر، يذهبون ويجهلون كلما سمح لهم الوقت بذلك.

سامية تحاول إقناع ابنها (12 عاماً) بأنه مازال صغيراً وأن سنّه لا تسمح له بالجهاد، بل عليه فقط الذهاب إلى المدرسة.

تعرف سامية أنه قد يلقى نفس مصير أبناء بعض الجيران والأحياء الذين يحملون على هواتفهم الجوالات فيديوهات تصور

موت أحدهم، تلطخه الدماء وتصاحبه موسيقى بعض الأغانى الوطنية، كليبات عدة مصورة بهذا الشكل يتداولها ليس فقط أهل الشهيد بل كل من حوله. «انظرى، هذا هو ابنها..!». يبادرنى القول أحد الأطفال، ثم يروى معظم الموجوبين كيف باعه الجيش النظمى وهو فى الجبل وكيف وكيف..تفاصيل موجعة تنتهى دوما بمصرع أحدهم، ودموع أم أو أخت أو خالة تجهش بالبكاء فى هدوء. هكذا يرحلون دون ضجيج.

مدرسة وحقيقة وذكريات

سندس تعمل فى المدرسة، فقدت أخيها ابن التاسعة عشرة، كان قد تطوع فى الجيش الحر... وقتل... وهى لا تستطيع أن تضع نقطة وتبدأ من أول سطر، كما تطلب من تلاميذ المدرسة أن يفعلوا.

«كان علينا أن نغير قليلا فى المناهج خاصة التاريخ والجغرافيا إلخ... ونحذف الأجزاء التى تتعلق بعائلة الأسد»، تشرح المدرسة المحجبة ذلك بين فترتين، فالمواد المختلفة، بما فيها اللغة التركية، تدرس هنا على فترتين لاستيعاب أكبر قدر من الطلبة، وفقا للمرحلة العمرية، الإناث فى مدرسة البنين فى أخرى، أى هناك أربع مدارس داخل المخيم، بالقرب من مكتب المدير بك، و3700 طالب و144 معلما.

وقد استطاعت الإدارة أن تحصل على اعتراف من اليونيسف بالشهادات التى تصدر عن هذه المدارس، بل ويزورها من وقت آخر وزير التعليم التركى.

فى رمضان الماضى اجتمع نحو 12 مدرسا من أهل المخيم وقرروا أن يشكلوا مديرية تعليمية مصغرة، وأجروا انتخابات للناظر والمعاونين، فوقع الاختيار على الأستاذ مرعي يونسو لتولى منصب الناظر، خاصة أن لديه خبرة سابقة إذ شغل موقع النظارة فى إحدى مدارس إدلب الابتدائية، وتحديدا فى المدرسة التى كتب على جدرانها بعض الشباب «يسقط بشار الأسد.. يسقط ابن بائع الجولان»، وكانت تلك هي الشرارة الأولى للثورة، إذ تزامن ذلك مع وقوع الشيء نفسه تقريبا فى درعا.

يحكى الأستاذ مرعي كيف كان بعثيا رغم أنفه: «لم يكن ممكنا أن أتوظف لو لم أكن بعثيا، خاصة أن لدى أقرباء كثرا ينتمون للإخوان، كان على أن أ'Brien أننى لست منهم».

انضم للثورة منذ البداية وطلب فى عدة فروع أمنية، بل ووجهت له تهمة الإتجار بالسلاح.. هرب وفي أول يونيو 2011 انضم للجيش الحر.. مكث فى الجبل مع أسرته لمدة 12 يوما، ثم اتجه إلى مخيم الريحانية بتركيا.

«بعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر، زوجتى أصيبت بانهيار عصبي.. حماى مع النظام، أخذها على سوريا، أما أنا فمكثت هنا أنا ووالدى والأولاد»، من حين لآخر يذهب الأستاذ مرعي إلى إدلب ليتفقد أحوال البيت الذى خضع للتفيش..

لكنه وجد أشياءه وذكرياته كما هي، فأتى ببعضها تحسبا لغدر الزمان: دفاتر مذكرات وكتاباته النثرية وشرائط كاسيت لكاظم الساهر وأم كلثوم، ركوة قهوة من الفضة، والأهم خواتم فضية يلبس أحدها، «هذا ذكرى من حب قديم، قبل الزواج»، حينن لما كان قبل رفيقة الدرب التى تركته لأن أهلها مع نظام بشار.

زينو زعيم الشبيحة

العديد من الأسر قد تحمل وصمة عائلاتها الأكبر والبعض يبرهن على عدم انتمائه لهذا الفرع أو ذاك نظرا لاختلاف المواقف السياسية. هذا هو الحال بالنسبة لمن يحملون لقب «برى».. اجتمعت النسوة لشرب القهوة العربية على باب أحد الكرافانات، بعد أن رجعن من السوبر ماركت الخاضع لإشراف برنامج الغذاء العالمى والهلال الأحمر التركى.. كل واحدة

تحمل بطاقتها الإلكترونية التي يتم شحنها شهرياً تبعاً لعدد أفراد الأسرة وتستخدمها لشراء السلع الغذائية.

بعضهن فرغ لتوه من حصة الغسيل اليدوى، بعيداً عن الماكينات العملاقة المخصصة لذلك، نظراً لانتشار الأمراض مثل أبوصفير والجديرى، على حد قولهن.

جلسن على الأرض ومررن فناجين القهوة في انتظار أن ينضج الطعام، ذكرت إحداهن عند رؤية بنت الجيران أنها تأكدت أنه لا علاقة لهم بآل البرى وتحديداً زينو البرى، زعيم شبيحة حلب الذي أعدم في أغسطس الماضي، فزينو البرى ينتمي لعشيرة الجيس المشهورة بعلاقاتها الوطيدة مع النظام وكانت تكافئ دائماً بمقعد في البرلمان وضمان حصرية عدة أنشطة تجارية بالمدينة، أما جيران اللجوء فهم من التركمان...

تنفس الجميع الصعداء، فليس بينهم خائن. مع أول خيوط الليل تنتشر العربات المدرعة لحماية المكان، ويلاعب الصبية ما يشبه العسكر والحرامية وهم يشهرون سيوفهم الوهمية في الهواء، وكأنهم يتصرفون بلادهم.

يرتفع صوت الآذان فيلبي بعضهم النداء على الفور.. هنالك شعور قوى لديهم أنه لم يبق لهم غير الله.. سجود تحلم أن تعود وتدرس الشريعة التي تعلمتها.. تقول إنه بفضلها قد تحقق العدل المفقود، فماذا لو عبرنا الحدود السورية؟..

المصدر: مجمل

المصادر: